

أعظم الأدب

إسخيولوس والدرامة اليونانية للأستاذ دريني خشبة

—

مقدمة

نشأ شعر الملاحم وترعرع في ظلال الأرستقراطية التي سادت الحياة اليونانية طوال عصر البطولة في القرنين التاسع والثامن، أو الثامن والسابع قبل الميلاد ونشأ الشعر الغنائي وترعرع في ظلال الأرستقراطية كذلك وامتد إلى منتصف القرن الخامس

وبرع في شعر الملاحم هوميروس صاحب الإلياذة والأوديسة، وهسيود صاحب الأربا (الأعمال والأيام) والثيوغونية (نشوء الآلهة) ودرع هرقل وبرز في الشعر الغنائي كل من سافو - شاعرة الخلود - وألسيوس وأنا كريبون وأرخيلوكوس .. وقد كان هؤلاء يقرضون الشعر ويتفننون به تسلية لأنفسهم لحسب ، أي أنهم لم يكونوا (محترفين)

أما الشعراء المغنون (المحترفون) فقد ألفوا الفرق الغنائية (للفناء والإنشاد والرقص) ، فهم بذلك مبتدعو (الخورس) اليوناني . وقد كان أرسطو يطلق على الأغنية من أغانيهم لفظة (دُرامب) Dithramb (كتاب الشعر لأرسطو)

ومن زعماء الشعراء المغنين ألكان الشاعر الغزل الرقيق الذي بعده المؤرخون مبتدع أشعار الحب ، وإن تكن سافو فيما ترى زعيمة هذه المدرسة . وقد اكتشف ماريت باشا^(١) سنة ١٨٥٥ برديّة مصرية بها قصيدة من روائع هذا الشاعر الفحل مما نظم لفتيات الكورس . وفي القصيدة نفحات من الدرام تدل على بداءة الأدب المسرحي

ومنهم الشاعر آريون الذي يُعزى إليه ابتكار الدُرامب (أغاني باخوس)

ومن أعظمهم الشاعر تيزياس^(٢) الذي يعدونه في الشعر الغنائي نذراً لهوميروس في شعر الملاحم ؛ وقد اكتسب الشعر على يديه مزايا عظيمة من حيث التنوع والقصص والزج بين الملحمة والفناء وابتكار القصة الشخصية التي تفيض بالاعترافات

ومنهم الشاعر إبيكوس الذي اهتم كثيراً بقرض أناشيد (الصبيان) ومازج بين الشعر والموسيقى ووشى قصائده بورد الربيع وعصافيره وجبر العذارى

ومنهم سيمونيدز (٥٥٦ - ٤٦٨) وهو أوسعهم ثقافة ، وهو في شعر الحكمة يشبه شاعرنا أبا الطيب من حيث الفكرة العميقة وقوة السبك وعلو المزلة ؛ وكانوا يتدارسون شعره في مجالس يعقدها جلة العطاء لهذا الغرض . وكان سفير قومه في بلاط الملوك والأمراء الأجانب . وقد ذهب برغم كبره ليعقد الصلح بين أميري سقلية المحتصمين فأدى مهمته على خير وجه . ويمزجون إليه أنه كان بخيلاً شديد الحرص ؛ وذلك أنه كان يطلب لقصائده (ثمناً محدداً !) لا ينقص منه مهما ألحف عليه في ذلك .. وأحسن قصائده ما كان له علاقة بالحرب . وقد كتب عن ترموبيلي أروع عُمراره ونظم في قتلاها أجمل فرائده .. ولذا أجه اليونانيون وآثروه بلقب شاعرهم الوطني دون بندار

أما بندار^(٣) ، فهو بلا رب أعظم الشعراء الغنائيين الذين أنجبهم اليونان على الإطلاق ... ولقد ولد في إحدى قرى بوطيه حيث نشأ نشأة موسيقي ، فتعلم العزف على القيثارة ثم مهر في النسخ بالناي ، وكان أستاذه في ذلك عمه الشاعر الذي كان يلزمه ويعلمه الفناء والإنشاد فضلاً عن الموسيقى والشعر ... ثم ذهب إلى أثينا ليتخصص فيها شداً من هذه الفنون ، فأتيح له الاتصال برجالها وذوى الرأي فيها . ومما يذكر له في هذه الفترة من فترات التحصيل أنه دخل في مباراة إنشادية غنائية مع زعيمة من زعميات الفناء في أثينا تدعى كوريتسا . فغلته وتفوقت عليه ... وتقلب بندار

(١) وقد سمي فيما بعد (ستاسي خورس)

(٢) ٥٢٢ - ٤٤٨ ق م

(٣) جلبرت موراي (أبلتون) ص ١٠٠

أبناءها . وهي قصائد أجود بكثير من كل ما نظم سيمونيدز في هذا المضمار . لكنها قصائد تشبه هدايا عصف الدولة للمتنبي . أغزر من هدايا سيف الدولة وأكثر ، لكنها كانت ينقصها الروح !!

ولا نستطيع نحن أن نقص من قدر أشعار بNDAR إذا قرأناها ولم تكن ملين بتاريخه ، بل ربما رفناها إلى أعلى أوج يرتفع إليه شعر قديم أو جديد ... فأشعاره إلهام رفيع ووحى علوى مما يميز على غول الشعراء ... وقد نظم كثيراً غير أوراده الدينية في الرياضة والرياضيين ، وقد كانت أوليا تسمويه بأبطالها كما كانت دافى تجذبه بأهلها ... وكان بNDAR يعيش عيشة فنية ، فكنه كان متحفاً للصور والتماثيل والموسيقى والشعر ، وكان مشغولاً بالجمال ينشده في كل ما تقع عليه عيناه ... في الطريق ... في الحديقة .. في اللهى ... في الماء ... في السماء ... في كل شيء

هذه هي الأَطوار التي ترقى في مدارجها الشعر اليوناني قبل أن ينهض الدرام نهضته العجيبة الخارقة في القرن الخامس قبل الميلاد ، وهؤلاء هم الشعراء المخلدون الذين مهدوا الذهب اليوناني لعصر النور والعرفان ... عصر بركليس العجيب

أما كيف بدأ شعر الدرام ، وأما كيف وجد المسرح اليوناني فهذا ما لم يعرفه أحد حتى ولا أرسطو نفسه^(١) الذي يعتبر معاصراً لهضة الأدب المسرحي في أوجه ، والذي شهد روائع هذا الأدب تؤديها أقوى الفرق اليونانية في أعظم المسارح التي عرفها التاريخ ، والذي أخذ نفسه بالدفاع عن الشعر عامة وتقض نظرية أستاذه أفلاطون في ذم الشعر وامتهان الشعراء

والنظرية الشائعة في ذلك ، والتي اتفق على صحتها المؤرخون^(٢) هي أن الشاعر آريون هو أول من حوّر الإنشاد الفردى إلى إنشاد يقوم به خورس (فرقة) ويتولى توجيهه رئيس ، وأنه هو أول من ابتكر أغاني الدثرامب Dithyramb (أغاني باخوس أوديونزوس إله الخمر والمرح والبرودة !) وهي أغاني كان يمارسها

في الإمارات اليونانية جميعاً ، وحل ضيفاً كريماً على أكثر ملوك الولايات حيث كان يقابل بالبشر ويتلقى بالترحاب ... وكان بNDAR يكره سيمونيدز ، وينقم من الناس تهافتهم على شعره الذي كان يدعو حكمة ولم يكن يدعو شعراً . وبNDAR وسيمونيدز في ذلك مثل البحترى والمتنبي . فقد كان البحترى شاعراً لأنه كان يُغنى ، أما أبو الطيب فقد كان حكيماً . وحسبه أن ثلاثة أرباع ما يحفظ الناس من أبيات الحكمة هو من شعره . وقد كان بNDAR ينزع في شعره وفي حياته نزعة لاهوتية ، فقد أخذ على عاتقه إحياء سنة السلف الصالح بالفتاء للآلهة ، وقرض الشعر ، ونظم الأناشيد الدينية تسبيحاً بأسمائهم ، وله في رها Rhea^(٣) . وبان^(٤) .

وأبولو^(٥) منظومات خالدة ... ومن هنا منزلته الرفيعة في دلفي ، فقد كان كهنة المبد يحبونه ويعتبرونه قديماً ، لأنه ألف حولهم قلوب العامة ، وأعاد للدين بهجته ، ولذا خصوه بأرفع منزلة في هيكلهم وأفردوه بغرفة خاصة يحل بها كلما زار دلفي . ونحسب نحن أن هذا هو الذي نفر منه خاصة الأدباء الذين هم قادة الرأي العام ... والشعب الوثني هو أعرف الناس بألته ، فلما أغرق بNDAR في هذه النزعة الدينية انصرف الجمهور عنه إلى سيمونيدز شاعر الحق والحكمة وتعجيد البطولة والأبطال .

وقد انتشرت أشعار بNDAR انتشاراً واسعاً بلغ مصر ، وتغلغل في صحرائها إلى معبد آمون — زيوس في سيوه حيث نقش أوراده الدينية على جدران المعبد وأعمدته بالذهب الخالص مما أدهش الاسكندر الأكبر وملك عليه به ... لكنه كان إعجاباً طارئاً سرعان ما طفت عليه الذكريات القديمة المؤلمة ... الذكريات التي لم ينسها اليونانيون لهذا الشاعر الكبير الذي خان وطنه الأكبر « هيلاس » بموقفه المزرى في غزوة الفرس الكبرى ... لقد انضمت بلاد للفرس ضد أثينا ، فلم يحتج ولم تتر فيه النخوة الوطنية ، بل راح ينظم القصائد في وجوب عقد الصلح ... هذه صفحة بNDAR السوداء ، الصفحة التي لم تنسخ ظلماتها ثموس القصائد المُر التي نظمها بعد ذلك في تعجيد أثينا وتحليل بطولة

(١) إحدى أنبيات التيتان وهي ابنة أورانوس (السماء) وجيا (الأرض)

(٢) إله الطبيعة والراعى

(٣) إله الموسيقى والشعر

(١) برتن راسكو — فصل سوفوكليس ص ٢٤ — طبعة بلوريون

(٢) الأدب اليوناني القديم لبورا ص ٧٦ وجليبرت موراى ص ٢٠٤

وتاريخ المسرح اليوناني ودرامته للدكتور روى فلكنبر فصل نبذة المأساة

الشعب على النمط الذي وصفه آريون إيان قطاف العنب

ثم جاء الشاعر تيسيس^(١) (من قرية إيكاريا) فكان يرأس خورسا كبيراً وزع على أفراده أدوار غنائية مستغلا الدرامب التي وضعها آريون ثم وسع دائرتها بحيث جعلها تشمل أغاني بان إله الراعى، فكان أفراد خورسه يلبسون رؤوساً تنكرية تمثل رؤوس الماعز، ولذلك كان يطلق عليهم لقب (المنشدين الغنزيين) Tragodoi، ولم يكونوا يمثلون درامات بالمعنى الذي نعرفه اليوم. بل كانوا ينشدون مقامات Cantatas أشبه بمقامات الحريري والبديع تشمل كل منها حادثة واحدة معينة

ومن لفظة Traqödoi اشتقت لفظة تراجيدى للأساسة

ومن لفظة Drömena أى الأشياء التي تؤدى اشتقت لفظة درامه Drama أى الأداء، وهى الفاظ كانت شائعة في المحيط الدينى في اليونان القديمة ثم أطلقت الدراما على الرواية المسرحية فيما بعد^(٢)

هذه وثمة آراء أخرى في أصل نشوء الدراما، منها أنها نشأت في جزيرة كريت (إقريطس) حيث كان الأهالي يحتفلون كل سنة بإحياء ذكرى مولد سيد الألب (زيوس!) فكانوا يمثلون ميلاده ثم زواجه من حيرا كما كانوا يصنعون ذلك في أرجوس وفي ساموس ثم نهضت أثينا — المقاطعة التي كانت حاضرتها أثينا — وعز عليها ألا يكون لها أدبها القوي الخاص فأقلت الملاحم — كما صنع يزاستراتوس — وأشعار الغناء، ثم نهضت بأدب الدرام على يدى تيسيس الأيكارى الذى مثل بنجاح عظيم في سوقها سنة ٥٣٤، وخويزبولس وپراتيناس

ولقد كان الشاعر — وهو رئيس المنشدين — يقوم بأدوار عدة، من دور الملك إلى دور القائد إلى دور الجندى إلى دور الرسول... فكان لا بد له من تغيير ملابسه في كل حالة من هذه الأحوال. لذلك أعد له في جانب من جوانب ساحة الرقص Orchestra (خص) أو خيمة SKênê ليبدل فيها ملابسه وإذا كان الشاعر يقوم بكل هذه الأدوار في المقامة الواحدة

(١) لم يذكره أرسطو في كتابه (الشعر) وقد ذكره مولون

(٢) أثرنا أن نرجع الكلام من الكوميديا إلى فصلنا من أرسطوفان

فإذا كان يصنع في الأحاديث؟ قالوا إنه كان يستعين بممثل آخر ليكون الطرف الثانى في الحديث، وكانوا يسمون هذا الطرف الثانى Hypocitês ومعناها المحجب، ثم استعملت هذه اللفظة نفسها فيما بعد للممثلين... فكانت الفرقة القديمة تتكون عادة من شاعر ومغنيين (اثنين) وغنائية وأربعين راقصاً

وكانت الحكومة هى التي تؤتى الممثلين والراقصين أجورهم كما كانت تنفع الشعراء بجوائزها الثمينة السنوية. أما الإخراج فقد كان الأغنياء يتحملون كل نفقاته، وذلك بأن يلجأ الشاعر إلى أحدهم فيعرض عليه أن ينفق على درامته من خالص ماله إلى أن تؤدى في المسرح، فكان الثرى يستأجر للشاعر خورساً بأكله ثم ينفق على الملابس والمناظر حتى يتم الإخراج كله. وكان الأغنياء يتباهون بهذا العمل ويتبارون في مضماره، ولا يخلون بعزير أموالهم عليه ولو ذهب بأكثرها، وكل ما كانوا ينشدون من جزاء هو شعور الفخر والزهو الوطنى حين تنجح الدراما التي أنفقوا عليها بمعرض الأول. ويجب أن نذكر هنا أن جمهور النظارة بل الجمهور الأثينى كله في القرن الخامس قبل الميلاد كان قد أوتى حظاً عظيماً من الثقافة العامة، وكان قد تربى فيه ذوق رفيع نمت فيه ديموقراطية هذا العصر التي أکبرت من قيمة الفرد وأشاعت فيه كبرياء الحرية والشعور بالسيادة

في ظل هذه الديموقراطية تربى ذوق الأثينيين الفنى حتى غدا ذوقاً أرسطوياً مهتماً بقدر الفن حتى قدره ويزن آياته بالقسطاس المستقيم، فحينما كانت تعرض الدرامات في مسرح أثينا كان الجمهور نفسه هو الذى يصدر حكمه عقب الانتهاء من التمثيل... وكان الشعراء يرهبون هذا القاضي الجبار لأنهم كانوا يقدرونه. وكل كان جيلاً من أرسطوفان في بعض مهازله أن يتعلق النظارة ويبالغ في تمليقهم ويطلب إليهم صراحة أن يحكموا له... ولنتصور إذن قضاء يبلغ عددهم ثلاثين ألفاً أو يزيدون يصوتون للشاعر أو عليه، وما يكون لحكمهم من أثر عظيم في نفسه في حالى السخط أو الرضى... لقد يكون في هذه الألوف المؤلفة قضاء غير عدول... فقد ذكر الأستاذ ج. ك.

من برج بابل

ليعذرني الأستاذ الحكيم صاحب البرج العاجي؛ فإأخذت
عنوان خواطري « برج بابل » تقليداً ومحاكاة... وإناأأخذته
تحدياً ومباراة!

وأخشى أن يتقلب البرجان أحياناً حصنين...
ولكنهما سوف لا يتقاذقان بالرصاص والقنابل...
وقى الله الإنسانية شرهما، فتلك أبعد عن طبيعتنا السمحة الوديمة
المسالمة... بل ستراشقان إن تراشقا بسهام من أغصان الزيتون...
وأخشى أن تزججه ثرثرة برجننا، فتقطع عليه هدوءه وعزله
وتفكيره وأبحائه الفلكية أيضاً! ناهيك بثرثرتنا نحن النساء.
ومن يدري؟ قلعله يهجره فراراً من جيرتنا المزجة!
وحسناً يفعل! فلسوف تحتله المرأة... فهو من العاج...
والعاج حلية لطيفة ثمينة محبة إلى قلب المرأة، والتحلي حاسة
سادسة لها... كأنك تتحدى المرأة وتغنم في عدائك المرووف
بالتزامك حصنك العاجي، ممذرة، بل برجك!
وكأنك أردت أن تجدع بنت حواء بأنه برج حقاً، حسبك
منه استشراف نجوم الأرض ونجوم السماء ونجوم السينا!...
ولكن عاجلك يارسول البرج غنيمة تفرى ولا تجدع فهو
قلعة في زى برج!

لم تحدثنا أيها الفلكي الراهب من برجك العاجي منذ أقت
بنيانه حتى الآن عن نجوم الليل السابحة في تيه قصي بسيد، ولاعن
عين السماء الفضية، ولاعن الزهرة في موكبها الفخم الجليل...
وكأنك عدوها أيضاً!

وإنا بلغ أصماعتنا من شاطئ برجك كلام لا يتصل بالفلك
ولا بالنجوم ولا بالأبراج...!

ولو كان برج حمام لأقنعت نفسي بأنه حتى أمان وسلام!

ولكنه برج من عاج. وهو كأشجار زرقاء اليمامة!

ماري نسيم

« الاسكندرية »

ستوبارت^(١) أن كثيرين من أهل أثينا كانوا ينظرون إلى التحكميم
في المباريات الأدبية بحسبان أنها مصدر عظيم من مصادر رزقهم...
بل كان بعضهم يدها المصدر الوحيد لهذا الرزق... يقصد بذلك
أنهم كانوا يبيعون أصواتهم لمن يدفع ثمناً أكثر... وهذا عيب
تافه من عيوب الديمقراطية شهدنا مثله في معاركنا الانتخابية،
لكنه لا ينهض دليلاً على فساد الذوق الفني عند اليونانيين.

لقد كان غشيان السراح فرضاً قومياً على الأثينيين في
أعيادهم. وقد أثر عنهم أنهم كانوا يقولون إن من لم يذهب إلى
السرحد في العيد لم يكن له عيد... وقد كانت الحكومة تنظر
إلى السرح نظرة كريمة عالية. لقد كانت تمدد الجامعة العليا التي
لا تعلم حروف الهجاء بل التي تطبع الشعب على أسمى صور الفضيلة
والإيثار والتضحية فتخلق منه شعباً راقياً طيب الأعراق يتذوق
أمور الحياة العليا بإحساس حي ناضج بصير لا بإحساس مبهمة بليد
وكانت كل طبقات الشعب تنشى السرح الكبير في أثينا،
وكان يظن أن النساء كن محجوبات عن شهوده، لكن الأستاذ
روى فلكنجبر دحض هذا الظن الذي لم يكن إلا حذسا وترجما،
بل زاد فأنثت بأدلة قاطعة أن الأرقاء أنفسهم كانوا يذهبون
إلى السرح للتمتع بالتمثيل، وكانت الحكومة تدفع لهم ثمن تذكارهم،
وكان ثمن التذكرة أوبولين، والأوبول Obol هو قطعة من العملة
اليونانية القديمة يساوي من عملتنا المصرية اثني عشر ملياً (ثلاثة
بنسات إنجليزية أو خمسة سنتات أمريكية) فيكون ثمن التذكرة
قرشين ونصف قرش تقريباً أو ما يعادل ثمن تذكرة بالدرجة
الثالثة في أي دار من دور السينما عندنا.

وبعد فهذه لمحة خاطفة عن نشوء الدراما اليونانية تليها
لمحات عن السرح اليوناني في عصر بركليس، العصر الزاهر
العجيب الذي حفل بأكبر عدد من شعراء الدرام على رأسهم
إسخيولوس وسوفوكليس ويوريبيدز.

دميتري مشته

(١) في كتابه الفخم من اليونان The Glory that was Greece

الفصل الرابع (القرن العظيم) ص ٤٢